عبده خال

– ألمْ يُدَقَّ الجرس؟

أَطلق السؤالَ بوجه زوجته وتابع ملاحقةَ زفراته المحمومة. كان وجهها عابساً، مغلقاً، ينبئ بضيق طافح وحسرةٍ مرتويةٍ عمَّقَتِ النظر إليه – بقرف – وأطلقتْ بدورها زفرةَ ضجرٍ قديمٍ

– ألا تَمَلُّ هذا السؤال؟

واقتربتْ منه بتثاقل، وبلَّعَتْهُ أقراصاً مهدِّئة، وأسدلتْ عليه الغطاءَ، وتحركتْ صوب غرفة جانبيّة

كانت الأدوية متناثرةً من حوله، وهو يرقد على سرير ذي أغطية رثّة، وقد بزغتْ عظامُ وجنتيْه، والتصق زَبدٌ متيبّسٌ على شدقيْه، وظلَّتْ عيناه الغائرتان تتابعان التلفازَ الذي استقرّ في مواجهته تماماً. وبين لحظة وأخرى ينادي زوجته، فتجيبه بعد أن يتيبَّسَ حلقُهُ، وإذا يراها يسألها بلهفة، وتشوّق:

– عندما كنت نائماً ألم يزرني أحد؟!

فتعود من حيث أتت دون أن تردّ عليه، فيتبعها صوتُه بإلحاح:

– أوَ لَمْ يُدَقَّ الجرس؟!

*

صائمٌ بابُنا عن الطَّرْقِ، وكنت في أوقات كثيرة أنهض من فراشي مترنّحاً، وأمسك بأُكْرَةِ الباب منتظراً أن يُدَقَّ أنْ يُدَقّ فَحَسْبُ. وكانت اللحظات – الطوال – تمضي دون أن تمتد إليه يد.. أحياناً كنت أتخيّل نغمةَ الجرس فأنهض، وأفتح الباب بفرح، فيجتاحني هواءٌ باردٌ، لأعود إلى مرقدي مرتعداً، وأجمع تلك الأغطية وأقبر جسدي بداخلها، وأدور في فراغ لا ينتهي

اليوم لم أعد قادراً على النهوض، واكتفيت بتعليق سؤالي الملحّ

– ألم يُدَقَّ الجرس؟!

ملأتْ زوجتي هذا السؤالَ، وأخذت تنزوي عني جانباً، وتُشغل نفسَها بالهمهمات التليفونيّة.

كان الوقت يمضي وأنا أتململ في مرقدي، وأهجس بأمور عديدة. ولم يكن يشغلني سوى هذه الخواطر البائسة المتدفّقة بوحشة طاغية. تغدو الحياة مملّة حينما لا تجد ما يشغلك سوى مضغ الماضي بحسرة. أن تعيش داخل الذكرى يعني أن تكون حيّاً بها ميّتاً خارجها، ويصبح حاضرك لحظة منتهية الصلاحية لا يمكن أن تمدّك بقليل من حلم تثقب به جهامة الغد . هذا الغد الذي لم يعد قادراً على أن يتجدّد، لم يعد قادراً على شيء سوى أن ينخر عظامنا ويدنينا من الكفن.

كان التلفاز يهذي بأقوال وأخبار عديدة تعبر مسامعي دون أن تثيرني وفجأة انجذبتُ لاشعورياً للمذيع وهو يتلو نبأً صادراً عن وزارة الداخلية.

– . .أقدم المدعوُّ سعيد بن عائد على قتل صاحبه عطيّة أحمد في شجار نشب بينهما على قطعة أرض كان كلٌّ منهما يدّعي ملكيّتَه لها ولم يتوانَ المذكورُ عن قتل صاحبه إذْ ضربه بعصا على جمجمته وظلّ يضربه حتى فارق الحياة، وقد نُفّذ به القصاصُ اليوم . . .

غمغمتُ بحزن عميق

– أوه ماذا يحدث لنا؟

وانتابتني موجةُ بكاء حادّة، أحسستُ بعدها برعشة تعتريني، ودُوارٍ عنيف يلفُّ رأسي، ولم يعد هناك أيُّ شيء مستقرّ. كل شيء يهتزّ ويتحرّك من مكانه، فمددت يدي للدواء المقذوف بعيداً عن سريري، وقبل أن أصل إليه كنتُ قد دخلت في إغماءة طويلة

مضت فترة طويلة وأنا أترقّب زيارة الأصدقاء، أولئك الذين كان بهم القلبُ جنةً من أنسٍ.. هل يعقل؟.. ألم يعلموا بمرضي إلى الآن؟.. ألم يفتقدوني؟.. لا لا ليس هذا ممكناً.. لا بد أنهم قد علموا، ولكنّ مشاغل الحياة تسرق لحظاتنا الجميلة.. ألم يفتقدوا تغيّبي عن مجالسهم، وأصدقاءُ العمل ألم يلاحظوا تغيّبي الطويل؟!.. كنت أحاول الاتصال بهم عبر الهاتف إلا أن زوجتي أخبرتني بأن هاتفنا لم يعد يعمل لانقطاعي عن تسديد عدّة فواتير، وقد أخذتْه وألقتْ به في غرفتها.. أوه لماذا لا أذكّرهم بصداقتنا.. أذكرهم بتلك الأيام التي كنا فيها ملتصقين كالكفّ بالمعصم؟.. نعم لا بد.. ولكن كيف لي وأنا غير قادر على الاتصال بهم، وغير قادر على الخروج؟ أوه.. لماذا لا أكتب لهم؟.. سأكتب لهم.. وسأحاول جاهداً أن تكون رسالتي مؤثّرة. سأعاتبهم.. وسأشتكي لهم بمرارة.. لا.. لا بد وأن يشعروا بي كما عهدوني.. نعم كما عهدوني.. فلم يعد هناك من يحمل حزنَ الآخر.

مددتُ يدي وتناولتُ ورقةً صقيلةً منقوشة بالورود، وانتظرت لحظات أستجمع الكلمات، وفي كل مرّة أغيّر ما كتبت، وأخيراً استقررتُ على نصّ الرسالة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأوغاد(*) الأعزّاء

تحيّة من جنوب القلب إلى شمال الحب

أكتب لكم من على سرير المرض – لا أراكم الله مكروهاً – وقد كنّا فيما مضى وريداً ودماً، وَجَزَ المرضُ ما بيننا.. فها أنا أسفح أنفاسي وحيداً بدونكم، فردّوا إليّ سلوتي بكم.

أيها الأوغاد:

قد تقولون.. حتى على سرير المرض يحترزم بكلماته المنمّقة. وأقول لكم هي جسري إليكم، وإذا كنتم لا تحبّذونها فسألقيها في جوفي بجوار القمائم العديدة الملقاة هناك بشرط أن تكونوا بجواري، وخاصة في هذا الظرف اللعين.. آه لو تعلمون مقدار حاجتي لكم.

أيها الأصدقاء الخُلَّص:

ما أشدّ اشتياقي إليكم، وأصارحكم بأنني أحبّكم بجميع صوركم: كذبكم.. نفاقكم.. انتهازيّتكم.. سخريّتكم.. بجميع تلوّناتكم.

هيّا تعالوْا.. تعالوْا، فستجدونني في أفضل وضع للسخرية.. فقط تعالوا، وسوف أساعدكم في استنباط النكات التي تدمع لها العين.

أرجوكم.. بل أتوسّل إليكم أن تأتوا.. فأنا بحاجة لكم

صديقكم المخلص للأبد

يحيى أبو خالد

حرر في ١٤١٢/٢/٢

(*) عفواً على هذا اللّقب الذي أضفيته عليكم، وإنما أوردته من باب رفع العتب، واتندّر لأذكركم بأنني ظلّكم الخفيف.

قرأتُ تلك الرسالة مراراً، حتى إذا ارتضيت عنها، قمتُ بنسخها بعدد أصدقائي، وظرّفْتُها، بعد أن كتبتُ عنوانَ كلٍّ منهم على ظرف مستقلّ، ورجوْتُ زوجتي بأن تدفع بكل تلك الرسائل للبريد.. ورقدتُ على فراشي مطمئناً أنتظرهم.

*

باتت زوجتي تضيق برقدتي، وتبدو أكثر ضجراً ممّا مضى حتى إنها أصبحت تنام في غرفة أخرى بعيداً عن أنيني وتوجّعي.. أذكر أمّي التي كانت تقف على رأس أبي لو أن وعكة ما أصابته.. كانت تجلس أسفلَ قدمه ودموعُها تتساقط، ودعواتُها تتوالى بأن يرفع الله الضرَّ عن زوجها، ولا تنقطع عنه لحظة، بل توصل الليل بالنهار.

وها أنا مقذوف في غرفتي أنادي حتى ينتفخَ بطني، وإذا أتت تشقّق وجهي بصراخها:

– هه.. ماذا تريد.. لم يدقّ الجرس.. ألا تفهم؟!

وتعود من حيث أتت.. مع أني أكون محتاجاً لها في أمر آخر لا علاقة له بدقّ الجرس.

الليلة أصابني الظمأ، وكان صوتي واهناً متهاوياً.. ناديتُها مراراً فلم تجبني، فتحاملتُ على نفسي، ونهضتُ مترنّحاً. وعبر الممرّ المؤدّي للمطبخ، كانت همهماتُها عبر الهاتف تصلني واضحةً:

– أرجوك لا تؤجّل اللقاءَ!!

شربت حتى غدا قلبي فحماً خالصاً.

*

وقفت أمام المرآة تتزيّن، فركتْ خدَّيْها فَسَرَتْ حمرةٌ خفيفةٌ على وجنتيها، ومرّرَتْ على شفتيها «رُوجاً» قانيَ الاحمرار، وشدَّتْ فستانَها الخمريَّ فأبدى صدراً نافراً وخصراً ضيّقاً، وقد تطايرت خصلاتُ شعرها بفوضى منسّقة.. إنّها تبدو في هذه الساعة أكثر جمالاً ممّا مضى.. كنت أودّ أن تجلس بجواري، فجذبتها برفق، فاستجابتْ على كرهٍ.

ومضيتُ أحدّثها عن أيّام زواجنا الأولى.. فكانت تستمع إليّ بصبر نافذ، وتعلق عينيها بساعتها الذهبية التي حصلتْ عليها هديةً من إحدى صديقاتها – كما أخبرتني – وكانت هناك رائحتان تجوبان غرفتنا: رائحتها الدبقة بعطر باريسي فاخر، ورائحةُ الأدوية التي تفوح من جسدي فتبعث الاشمئزاز في وجهها، وتنهض حاملةً عباءتها، وعابرة

لهاثي:
- إلى أين؟!
- سأبعث برسائلك علّ أحدهم يريحنا من سؤالك المملّ!!
ارْتجّ البابُ لخروجها، وأصبح البيتُ خاوياً إلا من أنفاسي التي تتكرّر برتابة، وكأنّ الفراغَ دوّامةٌ تجذبني للأسفل، وليس ثمّةَ ما ألوذُ به سوى بكاءٍ صامت.

*

رنينٌ قصير يصل إلى مسامعي فتخضرُّ له أعماقي. فززتُ من مرقدي وألقيتُ بغطائي بعيداً، وهممتُ بالتوّجه لفتح الباب. وقبل أن أخطو توقّفَ الرنينُ وعاد الصمتُ مطبقاً، فتراجعتُ وأنا ألوم نفسي:
- سوف تُجَنّ إذا أنت أمعنتَ في هذا الوسواس.
فعدتُ واستلقيتُ على فراشي.
رنين ممتدّ..
لالا.. لا بدّ وأنني أتوّهم.. هل حقّاً ما أسمع؟ نعم إنّه جرس الباب يرنّ بإلحاح. هل نسيتْ شيئاً ما وعادت لحمله، أم أنّها لامتْ نفسها لتركي في مثل هذه الظروف؟! ولكنّها تتركني دائماً.. لا ليست هي، فمفتاحها معها.. آه.. ربّما تذكّرني أحد الأصدقاء.. ترى مَنْ مِنْهم؟.. على أي حال سأرّحب به، وسأقبّله كما لم أقبّلْ أحداً من قبل، وسأشكره شكراً يفوق الوصف.
لقد أمضيت وقتاً في هذه الخواطر. عليّ أن أُسرع بفتح الباب قبل أن يَمَلَّ الطارقُ ويمضي. وبينما كنت أحاول النهوض أحسستُ بخدرٍ عجيبٍ يهوي في أعماقي. جاهدتُ كثيراً ونهضتُ مترنّحاً أَسْتند على الجدران. وفي عبوري باتجاه الباب لمحتُ وجهي بالمرآة: كان ضامراً ومغبَرّاً، وكدت أن أعود لأغسله بالماء والصابون علّه يعود ناصعاً مرتوياً كما عهدته، إلا أن خوفي أن يمضي الطارقُ حال بيني وبين هذه الفكرة. سأستقبل ضيفي، وبعد ذلك أصلح هيئتي. كانت خطواتي ثقيلة يابسة، والجرسُ مازال يصلني حاداً ومتّصلاً. بصعوبة بلغت الباب وأدرت أُكرته بلهفةٍ وتشوّق، وحينما رأيته ذُويتُ وتهاويْت..
فقد كان الموت يقف على الباب ويأمرني أن أتهيّأ للرحيل.!

جدة

اقْرأ

في العدد القادم مِن

الآداب:

بدر شاكر السيّاب

بمناسبة ذكرى ميلاده السبعين

(ملف كبير من إعداد الآداب في بيروت، وماجد السامرائي في بغداد).

فضلا عن عدد كبير من المقالات والقصائد والقصص

الآداب في عامها الرابع والأربعين:

أكثر حداثة... أكثر التزاماً!